معرض الماني للفنان الاردني عصام طنطاوي:

تأمل المشهد وتفكيكه ثم اعادة صياغته بصريا

عمان ـ «القدس العربي»
ـ من اياد كنعان:

في سابقة هي الاولى على مستوى الفن التشكيلي العربي، تستضيف مدينة هامبرغ الالمانية معرض الفنان الاردني عصام طنطاوي، وذلك في قاعة (ليفنس هاوس) في وسط المدينة الحيوي، ابتداء من الثاني من تشرين الثاني (نوفمبر) القادم ولمدة شهر، حيث يعتبر اول معرض شخصي تنظمه المدينة لفنان عربي.

يضم المعرض، الذي ابتدأ التحضير له منذ أكثر من ستة شهور، أعمالا حديثة للفنان، هي آخر نتاجه الفني، انجزها في الفترة بين عامي 2005 و2006، بالاضافة الى عمل جداري كبير نفذه الفنان عام 2003، حمل عنوان (جدارية الحرب)، مكونة من ثلاث قطع يبلغ اجمالي طولها خمسة عشر مترا بارتفاع متر ونصف، ستعرض في مزاد علني دعيت له مجموعة من الجمعيات الانسانية والجمعيات المناهضة للحرب في المانيا.

لقد نبعت فكرة هذا المعرض من رغبة المدينة في توثيق العلاقة بين الشرق والغرب، عبر استضافة مجموعة من الفنانين والمبدعين العرب، كان في طليعتهم الفنان عصام طنطاوي، بهدف خلق حوار ثقافي وحضاري وجمالي بين المتلقي الغربي الذي لم يألف النتاج الابداعي العربي، وبين المبدع العربي، بالاضافة الى نقل صورة اكثر اشراقا عن الثقافة العربية، عبر التركيز على الابعاد الجمالية المكانية في المنجز الابداعي العربي، تلك الابعاد التي تعتبر مجهولة بالنسبة لكثير من الاوروبيين.

لقد حدثنا الفنان عصام طنطاوي عن هذه المشاركة قائلا:

«ان مجمل الاعمال مستوحاة من تركيبة عمان كمدينة مستلهمة ومتخيلة، على الشكل الذي أرغب فيه، وليس بالشكل الواقعي الذي هي عليه، ان فكرة المعرض تتمحور حول المدينة المتخيلة، المشتهاة، كنت احلم في طفولتي بأنني سأتمكن يوما من تلوين المدينة، تلوين الجدران والصخور، فلما لم اتمكن من تحقيق هذا الحلم على الارض، اجتزأت اجزاء من المدينة وأعدت تفكيكها، وانشاءها على النحو الذي كان في ذاكرتي كطفل».

اما عن فلسفته في العمل فقال:

«انا لا اؤمن بالارتجال الهش والسريع للوحة، بل اؤمن بالعمل الذي يستند الى بحث انشائي وفوتوغرافي للمشهد، لتفكيكه ثم اعادة صياغته وفق رؤية جمالية خاصة، لقد استندت في اعمالي الى طبوغرافية عمان المميزة، والتي تجعل من كل ركن فيها مشهدا مميزا، لا احب ان امر بشكل عشوائي او دعائي او سياحي على عمان، لكنني ابحث في العمق، عمق المشهد وجماليته، اخرج في الصباح الباكر واصور المشهد بتغيرات الضوء والظلال، ثم اقوم بسلسلة دراسات تحليلية حتى اصل الى لوحتي الخاصة والخالصة في نفس الوقت، والتي قد تصل الى التجريد في بعض اجزائها بشكل تلقائي، لكنني لا اؤمن بالتجريد الذي يهبط من السماء، ثمة مرجعية واقعية لهذا التجريد حتى في اشد حالاته تطرفا. الطبيعة هي المعلم الاكبر وبالنسبة لي فان المشهد العماني، يسكنني في تراكماته العمارية والعامودية المتشابكة، التي تنعكس في مجمل اعمالي، وان لم تظهر بشكل مباشر في لوحة واحدة، لكنها لا زالت تثري ذاكرتي الجمالية والعاطفية معا».

عصام طنطاوي (القدس العربي)

وفي معرض رده عن علاقة الفنان بمدينته، كون المعرض يركز على المدينة والمكان وعلاقتها بالفنان، في محاولة لاكتشاف المصادر البصرية للفنان، اجاب طنطاوي:

«الفنان الاردني لم يعط مدينته او بيئته حقها، كما فعل الفنانون العرب الاخرون، هذا لا يعني ان يتم استلهام المدينة ضمن قرار اعلامي من الدولة، لكني استغرب ان مدينة كعمان القديمة (بالتحديد)، تتمتع بكل هذا الثراء البصري والتكوين الجغرافي والمعماري المتفرد، ولا تظهر بشكل راق ومدروس في اعمال الفنان الاردني».

تعتبر تجربة الفنان الاردني عصام طنطاوي من اكثر التجارب الاردنية تطورا وتجددا في نفس الوقت، مرت تجربته بمنحنى طويل من التراكم البصري، والغنى اللوني والتكويني، الذي ابتدأه منذ ستينيات وسبعينيات القرن المنصرم عندما اعتاد تلقي التوبيخ تلو التوبيخ على تلك الخربشات التي اقترفتها ادواته الاولى على جدران منزله في مدينة الزرقاء، او على الورق العزيز في تلك الايام، عندها لم يكن يتجاوز العاشرة من عمره. عمل مصمما في عدد من المؤسسات الاعلامية الاردنية والعربية، وساهم مع الناقد الاردني يوسف ابو العز في اخراج مجلة «فن» الفنية المتخصصة، التي صدرت عن غاليري روشان في السعودية في ثمانينيات القرن المنصرم. هجر التصميم الغرافيكي ليتفرغ للوحة والعمل في مرسمه الذي اصبح مقصدا للفنانين والكتاب والمسرحيين في جبل اللويبدة، في قرار يصفه بأنه اكثر القرارات حساسية واهمية في حياته والذي كلفه الكثير بحد تعبير الفنان، لكن النتيجة الواضحة للعيان، هي لوحة ناضجة، مشبعة بقيم جمالية وتكوينية، اعطاها الفنان من روحه، مثلما اعطاها من عمره وتفكيره.

يذكر ان عصام طنطاوي ولد في مدينة القدس عام 1954، عاش طفولته وصباه في مدينة الزرقاء، اقام عدة معارض شخصية ابتداء من عام 1990، له عدة مشاركات فنية في عدد من العواصم العربية والاوروبية، كما انه حائز على عدة جوائز فنية في عدد من المسابقات الدولية.

لوحة

بالمركز الثقافي الجامعي الحسين بوزيان في تونس:
انشطة مسرحية وسينمائية ومسابقة شعرية للطلبة

تونس ـ «القدس العربي»
ـ من شمس الدين العوني:

المركز الثقافي الجامعي الحسين بوزيان، قطب للنشاط الثقافي الطلابي وقد عرف خصوصا بمهرجانه الشعري الذي استقطب حيزا هاما من ابداعات الطلبة في فن القول الشعري وقد مرّ منه عدد من الشعراء العرب نذكر على سبيل المثال سعدي يوسف وأحمد الشهاوي... منسق المهرجان الناقد لطفي بولعابة، عمل على أن يكون للمهرجان رافد آخر وهو نادي الأدب الذي يجمع نخبة من الشبان في مجال الكتابة الأدبية كالشعر والقصة وقد تعددت اللقاءات مساءات الجمعة حيث دعا رواد النادي عددا من الضيوف من المشهد الشعري التونسي للتنافذ مع تجاربهم والاستماع الى جديد أشعارهم. وقد وجد هذا النشاط اقبالا من الطلبة ودعما خاصا من مدير المركز الاستاذ جمال الشريف.

من الانشطة التي تزامنت مع شهر رمضان نذكر عرض عدد من الاشرطة السينمائية والمسرحيات منها مسرحية «ممنوع الضحك» للسعد عثمان و«الفداوي» لخالد شنان ومسرحية «منيرة» لعلالة نوايرية فضلا عن السهرة الخاصة باحتفالية الذكرى الاولى لانبعاث الجمعية التونسية للمتصرّفين في الأرشيف.

هذا الى جانب العروض الموسيقية لمجموعة ياسمين بقيادة مصباح الصولي ومجموعة الحمائم البيض كما نظّم المركز مسابقة رمضانية في الشعر وذلك تحفيزا للشعراء على الابداع في مجال الشعر وكذلك تفعيل النشاط الابداعي لدى الطلبة. ونظم المركز معرضا لانتاجات طلبة الفن التشكيلي ومعرضا للصور الضوئية بالاضافة الى عروض الفيديو اليومية على الشاشة العملاقة لمسرحيات تونسية.

وبالنسبة لمسابقة الشعر التي أشرف عليها الاستاذ لطفي بولعابة منسق نادي الادب فقد تمّ تكريم الشاعر عبد الله مالك القاسمي عضو الهيئة المديرة لاتحاد الكتّاب التونسيين الذي يسافر قريبا الى مصر لحضور فعاليات مؤتمر اتحاد الادباء العرب كما يشارك في مهرجان الشعرالعربي وقد اهتم الطلبة بتجربة الشاعر عبد الله مالك القاسمي وكان اللقاء معه مهمّا وطريفا، وقد شارك في المسابقة حوالي 30 من شعراء الأجزاء الجامعية المختلفة ونظرت لجنة في النصوص حيث آلت الجوائز الى كل من سامي الذيبي وفريد سعيداني وحسن شقبوعة وجميل عمامي.

ويعتبر هذا النشاط الرمضاني دعما آخر لأنشطة المركز حيث يتم الاعداد للدورة السادسة عشرة للمهرجان الوطني للشعراء الطلبة بالمركز الثقافي الجامعي الحسين بوزيان الذي ينسّقه ويديره الاستاذ لطفي بولعابة.

25 عرضاً في مهرجان دمشق الدولي للفنون المسرحية

■ تونس ـ يو بي أي: تشارك تونس في الدورة 13 لمهرجان دمشق الدولي للفنون المسرحية التي اليوم الثلاثاء، وتستمر حتى العاشر من الشهر المقبل بمشاركة 16 دولة عربية وأجنبية ستقدم 25 عرضاً.

وقال مصدر من وزارة الثّقافة التونسية ان تونس ستشارك بثلاث مسرحيات في هذه التظاهرة التي ستهتم هذا العام بروح الشباب في الإبداع المسرحي وفق رؤية استشرافية مستقبلية لانقاذ جسد المسرح العربي من التّرهل. وأوضح أن المسرحيات الثّلاث هي «ساعة ونصف بعدي أنا» التي كتب نصّها وأخرجها نضال قيقة ويلعب دور البطولة فيها المسرحي أحمد الحفيان، و«هنا تونس»، و«هوى وطني» من تأليف وإخراج رجاء بن عمار. كما سيتمّ خلال الدورة أيضا تكريم المسرح التونسي، حيث وجهت ادارة المهرجان دعوات لعدد من الوجوه المسرحية التونسيّة منها فاضل الجعايبي وجليلة بكار، وتوفيق جبالي ومحمد ادريس المدير العام للمسرح الوطني التونسي.

وكانتْ وزارة الثّقافة السورية قد أشارت في وقت سابق إلى أن برنامج هذه الدورة الجديدة لمهرجان دمشق الدولي للفنوّن المسرحية يتضمن 25عرضا مسرحيا من 13 دولة عربية وثلاث دول أجنبية هي تونس ومصر ولبنان وسلطة عمان والجزائر والمغرب واليمن والأردن والسودان والامارات العربية والسعودية والعراق وفلسطين،بالاضافة الى ايطاليا والسويد وقبرص. وستشارك مصر بمسرحيتين هما «الناس يلي في التالت» من تأليف أسامة أنور عكاشة وإخراج محمد عمر و«أحلام شقية» من تأليف سعد الله ونوّس و إخراج محمد أبوالسعود، بينما ستشارك الجزائر بمسرحية «بيت الحدود» من تأليف سلافو ميروزاك وإخراج بلقاسم عمار. أمّا لبنان،فسيشارك بمسرحية «سكويك» من تأليف وإخراج خلو ناصر،في حين ستشارك سلطنة عمان بمسرحية «جسّدي مدن وخرائط» من تأليف قاسم مطرود وإخراج عبد الغفور البلوشي،والسعودية بمسرحية «أسنة الّلثم» من تأليف وإخراج محمد البيش.

كما سيشارك اليمن بمسرحية «نادي الكبة» من تأليف وإخراج خالد المرولة،بينما يشارك الأردن بمسرحيتين الأولى «مقامات الوهراني» من اخراج وتأليف غنام غنام،والثانية «قبعتان ورأس واحد» من تأليف مؤنس الرزاز وإخراج حسين نافع. وستقتصر مشاركة السودان بمسرحية واحدة هي «هناك طقس البقاء» من تأليف وإخراج استيفن اوشيلا، وكذلك أيضا الامارات بمسرحية «الظمأ» التي ألفها عارف سلطان وفيصل الدرمكي وأخراجها فيصل الدرمكي. كما سيشارك المغرب بمسرحية «أربع ساعات في شاتيلا» من تأليف جان جونيه وإخراج عبد الواحد عوزري، على ان يشارك العراق بمسرحيتين الأولى «نساء لوركا» من تأليف وإخراج عواطف نعيم، والثانية «حظر تجوال» من تأليف وإخراج مهند هادي. أمّا مشاركة فلسطين، فستكون بثلاث مسرحيات هي «صفد شاتيلا من والى» تأليف بيان شبيب وأناميكي دبليس وإخراج أناميكي دبليس، و«الجدار» من تأليف أعضاء الفرقة وإخراج جورج ابراهيم، و«الجدارية» من تأليف الشاعر محمود درويش وإخراج أمير نزار،بينما ستشارك إيطاليا بعملين هما "شهرزاد والتفكير في بغداد" من اخراج قاسم بياتلي وسكوبي بارك، والسويد بعملين هما «مملكتي» و« 2003 بعد الطوفان» وقبرص بمسرحية «ميديا».

فاوست في المزادات المُفْلِسَة للمعرفة

سعيد أراق*

ما من وعيٍ إلا وهو وعيٌ بالموت والألم
ميغيل دو أونامونو

■ لنبدأ من هنا: مدينة صغيرة تسمى «كنتلنغن» Knittlingen في ألمانيا. هادئة برتابتها الجميلة التي يستعذبها الباحثون عن الملالة والسكينة. هنا مضارب الدكتور «يوهانس فاوستوس» Johannes Faustus المشهور عالميا باسم: «فاوست»، ومن هنا انطلقت شرارته لتعم أرجاء العالم، ولترسم ملامح الإنسان الذي يريد أن يعلم حتى ولو باع روحه للشيطان.

في أركيولوجيات البحث عن حقيقة هذه الشخصية، يحكى أن «فاوست» ليس شخصية من نسج الخيال، بل شخصية واقعية عاشت بالفعل في مدينة «كنتلنغن». وكان يمارس مهنة الطب، قبل أن يتحول إلى شخصية تأتي بالعجائب ويصدر عنها ما لا تدركه الألباب ولا تدري كنهه العقول. وتقول الأقاويل إنه تعاقد مع الشيطان، فباعه روحه مقابل الحصول على العلم والجاه والقوة والمعرفة. ثم مات بعد ذلك في ظروف غامضة.

وانتهى فاوست، لكن أسطورته ظلت مُستعادة.

لَئِنْ كان الإنسان يحلو له أن يتمثل رمزيًا بما ليس هو على وجه الحقيقة، فإن في ذلك استجلاء لمُضْمَرَات طبيعته التي لا تَتَبَدّى إلا بالتمثيلَ والمماثَلة. فالإنسان هو «دون كيشوط» في نَبَالَتِه المضحكة المبكية. والإنسان هو «سيزيف» في عَبَثية مصيره. والإنسان هو «أوليس» في مكره وتغربه وتيهه. والإنسان هو «بروميثيوس». وهو «أوديب». وهو «أورفيوس». وهو «نارسيس». وهو كذلك «فاوست»، ذلك الرجل الذي باع روحه بثمن بخس من أجل أن يعلم.

يقول «فاوست»: «آه! لو أن قوة الروح وَصُولَةَ الكلام، تكشفان لي الأسرار التي أجهل، آه! لو أني لم أكن مجبرا بشقاء على قول ما لا أعلم. يا حبذا لو كان بإمكاني أن أعرف كل ما يحجبه عني هذا العالم!، وأن أرى ـ دون أن أثقل كاهلي بالكلمات التي لا تجدي ـ كل ما تضمره الطبيعة من طاقة خفية وبذور يانعة أبدية!؟».

وبعد أن تَحْصُلَ له المعرفة التي قايضها بروحه، يستشعر «فاوست» أنه استكمل مدارج الارتقاء الأوفى نحو ما يمثل التَّوْقَ الأبديَ المغذي لكل الاستيهامات الإنسانية. فيخاطب نفسه بكلمات نرجسية حالمة: «هل أنا الآن إله؟ كل شيء أضحى في ناظري واضحا كالشمس. في هذه الخطوط البسيطة، يتجلى العالم لروحي بكل ما فيه من حركة الحياة، وكل ما يستضمره من طاقة مفعمة خلاقة. وهاأنذا أخيرا أتعرف على حقيقة أقوال الحكماء!3». إن هذه المعرفة التي تأتّتْ لـ«فاوست» من حيث لا تتأتى لباقي الناس، ليست من نوع المعرفة الاستعلائية بالمعنى الكانطي للكلمة. إنها معرفة تقوم على مرجعية المصادرة، مصادرة الذات التي يتاح لها أن تتبوأ مقام المعرفة، لكن ليس من منطلق التجلي والحضور، بل من منطلق الاستلاب الذي يجهز على كل أمل لاحق في انتشال الذات من ترديّاتها الرَّعْناء ومن القبضة التي لا ترحم. وإذا كان المَيْسَمُ الجوهري للمعرفة هو كونها تحررية وتحريرية بالانتساب والطبيعة والتعريف، فإن المعرفة على الطريقة الفاوستية، تقترن مبدئيا بطقوس المبايعة التي تتحول رمزيًا، إلى نوع من تصفية الحسابات التعاقدية بين كيَانَيْن لا يحتكمان إلى نفس المقتضيات والمَنطق. وهي بالتالي معرفة لا تُحَرِّرُ الذات ولا تعلو بها ولا ترسم لها مآلا بهيًا في الأفق البعيد، بل تُطْبِقُ عليها من كل صوب وجانب، وتستبقيها بالتالي ضمن حدود الوعي الشقي بالقضاء المشؤوم والمصير المُدَرَّج بالمأساة. وبالتالي فمُتَرَتَّبَاتُ المسار الذي انخرط فيه «فاوست»، ليس فيها على وجه الإطلاق أي هامش لمصير مغاير أو تطور اختياري، حر ومتاح. لقد قال «إرفين لازلو» Ervin Laszlo: «إن التطور ليس هو المصير، وإنما هو الفرصة4». لكن التأمل في قصة «فاوست»، هو تأمل في محدودية الفرص والاختيارات المتاحة أمام الإنسان الذي عليه أن يشقى من أجل أن يعرف. وحين تتحصَّلُ له المعرفة من حيث لا فكاكَ ولا مفر، تصبح قمة الحكمة هي توطين الذات على تبرير ما لا يطاق. وهكذا تنشأ المعرفة التي لا تفيد ولا تستفيد، لأنها معرفة تنفي الذات العارفة وتحشر كل خطاب حولها ضمن منطق التأسّي والتأبين.

ومن هنا يبدو أن المعرفة على الطريقة الفاوستية، هي بمثابة مؤشر رمزي على المأزق الإنساني. فحالة الإفلاس الفاوستي، ليست حالة فاوست/الشخص، بقدر ما هي حالة فاوست/الإنسان. وهذا النوع من المعرفة، ليس رهانًا بحتًا، بل هو ضرب من المراهنة أو القمار. وكل مقومات المعرفة الفاوستية، تتغذى حَصْرًا من مرجعية غيرية فادحة التسلط، شيطانية المقام، مما يجعل منها معرفة مشروطة نصيًا ومقاميًا ومصيريًا بشرط الاستلاب والتبعية. وما يهمنا من دلالة هذين المفهومين ـ في هذا السياق ـ ليس الدلالة الإيديولوجية، وإنما الدلالة الإبستمولوجية والفلسفية في أبعادها المؤسِّسَة لخصوصية الشرط الإنساني ومحتوى تجربته الوجودية الماثلة والشاخصة. لقد قال «القديس أوغسطين»: «إن الإنسان الصالح، يكون حراً حتى حين يكون مثقلا بعبوديته». لكنها بالتأكيد ليست حالة «فاوست» أو من جرى مجراه. لأن العبودية قد تكون بدورها مستساغة ولذيذة لمن أنشأته صروف الدهر على استرخاص الروح وتمجيد الشيطان.

وعليه هل في بنياتنا أو ما يشبه البنيات المعرفية، بنيات فاوستية؟ هل نملك وَعْيَ ربط المعرفة بالتحقق السافر للذات أم أن معارفنا ليست في نهاية المطاف سوى الوجه الآخر لتغييب ذواتنا واسْتِعْذاب ما نحن فيه من مَضْيَعَة ومَسْغَبَة وإقصاء؟. ألم يكن امْرُؤُ قَيْسنا فاوستيا قبل فاوست؟ هو أيضا كان له شيطانه الذي يلتقي به خارج مضارب القبيلة لكي ينفث في رَوْعِه مُسْتَطْرَفَات القصائد وسَاحِر الأشعار.

* كاتب من المغرب

تداعيات

تناقضات تجمعت.. وأنتجت محمد عودة

حسنين كروم*

■ لو لم يكن أخي العزيز جمال الغيطاني وما له من موقع في قلبي هو الذي طلب أن أكتب عن صديقنا الكاتب والمفكر والانسان الراحل محمد عودة لتلكأت وطلبت مهلة، حتى يزول جزء من جبل الحزن الجاثم على القلب، بحيث يسمح للعقل أن يتحكم في الكلام، ونعطي لعودة ما يستحق أن يعرفه عنه الناس بشكل موضوعي، لأن الكلام العاطفي تحت تأثير الحزن لا يدوم ولا يفيد، ولأنني أعرف أن دمعة أو أكثر لا بد أن تصاحب القلم وهو يكتب عن صديق عزيز تم دفنه منذ ساعات، وكانت لي تجربة سابقة مع أستاذنا الراحل أحمد بهاء الدين بعد وفاته عندما أردت أن أكتب عنه، فكانت تسقط دمعة بين جملة وأخرى، فانصرفت عن الكتابة لشهور طويلة، الى أن بدأت أكتب عنه بهدوء مرات كثيرة في جريدة «القدس العربي».

والغريب أنه بعد وفاة الشاعر والكاتب لكبير والموهوب صلاح جاهين شاهدت في التلفزيون حديثا مع المرحوم بهاء عنه ولا أذكر من الذي أجراه معه، وبدأ التأثر واضحا على بهاء، واصل المحاور الضغط عليه لمزيد من الكلام، ففوجئت بالأستاذ بهاء وصوته يتهدج ولمعت الدموع في عينه من خلف نظارته الطبية وارتعشت شفتاه، وقال للمحاور، كفاية، ولكن المحاور أراد معاودة السؤال، فرد بحسم، كفاية، وأنهى اللقاء.

واستخدمت كلمة الغريب لأنني اعتقدت أن استاذنا بهاء عاطفي أكثر من اللازم، الى أن أردت الكتابة عنه بعد وفاته وفشلت، لذات السبب الذي دفعه لأن ينهي بحسم اللقاء التلفزيوني، وأدركت أكثر من أي وقت مضى تأثير عمق العلاقة الانسانية عند محاولة الكتابة أو الحديث عن فقد انسان عزيز بعد وفاته مباشرة، وعودة لم يكن صديقا ولا أخا ولا منبعا ننهل منه معرفة ونقاء انسانيا، ولكني كنت شريكا له في معركة سياسية كبيرة، مع مئات آخرين من كبار الكتاب والمفكرين والصحافيين والسياسيين وشبابهم، دفاعا عن ثورة يوليو وزعيمها خالد الذكر جمال عبدالناصر ضد الهجمة الهائلة التي تعرضا لها، خاصة جانبها الذي شاركت فيه قوى خارجية لتصفية ما تحقق من منجزاتها لصالح الأغلبية الشعبية ولذلك قررت ألا أكتب عنه منذ بلغني خبر وفاته الا بعد فترة، بل انني لم أكتب عنه أثناء مرضه رغم أن كثيرين فعلوها وكان رأيي انني لو فعلت مثلهم فكأنني أنعي مقدما عزيزا لا يزال يصارع المرض الرهيب، وقد يخرج من المعركة فائزا رغم ما علمته بأنه لا أمل، وهي مسألة وقت لن يطول كثيرا، وهو ما دفعني لأن لا أزوره بعد عدة زيارات.

فلم يحتمل قلبي أن أراه وهو يقترب كل يوم من حفرة القبر، ولم أفعلها الا مرة واحدة في مناسبة احتفال أحبائه بعيد ميلاده في مستشفى قصر العيني الفرنساوي، وظللت مركزا بصري عليه طوال الجلسة، تدهورت صحته الى حد بعيد، ولكن روحه لا تزال كما كانت عفية متفائلة بمستقبل مصر وثقته المفرطة في قدرة شعبها على تجاوز المحن التي يواجهها، نفس الروح التي كان يتحدث بها منذ ثلاثين وعشرين وعشر وخمس سنوات وسنة، والكلمات تخرج بصعوبة منه ومعظمها غير واضح!! تلك الروح الواثقة من المستقبل رغم أن ملك الموت اقترب كثيرا منها ليقبضها ويرفعها لخالقها؟! بكيت في السيارة وأنا في طريقي من المستشفى لمنزلي، واتخذت قرارا نهائيا ألا أزوره مرة أخرى، فقلبي لم يعد يحتمل رؤيته على هذه الحالة رغم أنها من جانب آخر تعطي درسا في العزيمة والثقة في المستقبل.

ولهذا لم يكن متصورا ان اكتب الآن عن عودة لولا لما للغيطاني من مكانة في قلبي، ولمكانة عودة في قلبه وعقله.

وحتى هذه الجمل كتبتها بصعوبة شديدة، فما بين كل فقرة وأخرى كنت أتوجه للحمام لأغسل وجهي لازالة آثار الدموع، وأعود لحالتي الطبيعية وأستطيع أن أقول وأنا هادئ الى حد ما، أن عودة لم يكن واسع الثقافة ومطلعا عليها، ولكن التقت فيه اتجاهات سياسية متعددة ومتناقضة في بعض الأحيان، هي الوطنية المصرية والاشتراكية والماركسية والعروبة والاسلام، وتراث الوفد بثورة 1919 بزعامة خالد الذكر سعد زغلول وخليفته خالد الذكر مصطفى النحاس، وقبلهما الثورة العرابية وزعيمها أحمد عرابي ثم مصطفى كامل، وانتهاء بثورة يوليو وخالد الذكر جمال عبدالناصر. هذه المنابع تجمعت وشكلت عجينة متميزة هي محمد عودة وحددت توجهاته لذلك لم يكن غريبا أن تجده متحمسا لتجربة الثورة الشيوعية في الصين بقيادة ماوتسي تونغ وأصدر عنها كتابا، ومتحمسا أيضا لتجربة الهند الاشتراكية الديمقراطية أيام نهرو وابنته انديرا غاندي، وكتب عنهما كثيرا، رغم العداء بين الدولتين والذي وصل الى حد الحرب، ومتحمسا لثورة عرابي ولثورة 1919 ومحبا لأبعد الحدود لسعد والنحاس ثم لعبدالناصر ولم أدرك مدى حب عودة للنحاس، الا عندما كنت أعد في عام 1979 لكتابي ـ عروبة مصر قبل عبدالناصر من 4 شباط (فبراير) 1942 ـ 23 تموز (يوليو) 1952، وكان يعرف تقديري للوفد قبل الثورة ومحبتي للنحاس، ففوجئت به ونحن نجلس وحدنا في مقهى درويش بالحسين، يسألني، لمن ستهدي الكتاب؟، فقلت له، لم أفكر حتى الآن، وان كنت أميل لاهدائه لعبدالناصر، فقال لي، فيما يشبه الرجاء، وأهده أيضا للنحاس، ما دمت تتعرض لفترة ما قبل الثورة، بل اختار الاهداء بنفسه وهو:

«الى الزعيم الخالد مصطفى النحاس، والى الزعيم الخالد جمال عبدالناصر الذي واصل المسيرة» وهو موجود في الطبعة الأولى من الجزء الأول الصادر في عام 1981، وهذا سر أفشيه الآن، لأن عودة كان قد دخل قبلها في معركة عنيفة مع حزب الوفد الجديد بزعامة المرحوم فؤاد سراج الدين بعد عودته في 4 شباط (فبراير) عام 1978 وجمد نشاطه في الأول من حزيران (يونيو) من نفس العام، عندما قام بالرد على كلمة سراج الدين في نقابة المحامين بتاريخ 23 آب (أغسطس) عام 1977 في الاحتفال بذكرى وفاة خالد الذكر سعد والنحاس، وكان أول ظهور علني له بعد الثورة وتمهيدا لعودة الوفد، وجاء رد عودة في كتاب الباشا والثورة، وقمت أنا أيضا بالرد على فؤاد سراج الدين في كتاب عنوانه ـ مستقبل القوى السياسية بعد ظهور الوفد ـ وهو ما اعتبره عودة بداية خلاف بيني وبينه لأنه اعترض على ما اعتبره من جانبي لينا في مهاجمة سراج الدين، ثم زاد الخلاف بسبب سراج الدين بعد أن أعددت له ذكرياته السياسية، ونشرت في شهر ايلول (سبتمبر) عام 1979 في جريدة «الشرق الأوسط» على عشرين حلقة، وكان رأيه، أنني وقعت أسيرا لاغرائه لأنه كان يحمله ومعه كبار ملاك الأراضي الزراعية المسؤولية عن سيطرة الاقطاع على الوفد، وعلى كل فهذه كانت آراء عدد من الكتاب للنحاس، وقد كان يحلو لي أن أهدده بأن أفشي السر اذا احتدم الخلاف بيني وبينه حول الوفد، فيضحك ويقول:

خلاص، خلاص. المهم أن المنابع السياسية والفكرية المتعددة والمتناقضة التي شكلت عودة هي سر انجذاب كل من يعرفه اليه، سواء كان وفديا أو ماركسيا أو اشتراكيا أو اسلاميا أو من أنصار ثورة يوليو، لأنه سرعان ما يكتشف انه جزء منه، أو له نصيب في نفسه، وهو ما أضفى على شخصيته البساطة والعمق والاتساع، والانسانية، وما أكسبه تلك الثقة المفرطة في المستقبل رغم لحظات اليأس التي تنتاب الجميع مع كل هزيمة سياسية لنا، وانتصار لاسرائيل وأمريكا وأعوانهما مصر والعالم العربي.

أما دوره داخل مصر بالنسبة للحركة الناصرية فيحتاج الى دراسة أخرى، وشهادات من الذين عاصروه وشاركوه معاركه، ولا أسمح لنفسي بالانفراد بالكتابة عنه.

ولا أعرف وأنا انتهي من كلامي ان كانت عاطفتي غلبتني أم لا.

* مدير مكتب «القدس العربي» في القاهرة